# الفصل الخامس

## الغـزو الثقـافـي

# الغزو الثقافي

**مـدخـل:**

يعد الغـزو الثقافي، وهـو يشمل الغزو الفكـري بطبيعة الحال، أحـد أشكال الاستعمار الجديدة. ولعل عـودة تاريخية خـاطفة تكشف لنا الغطـاء عن جذور هـذا الغـزو الثقـافي، كما أثبتتـه الأحـــداث، فعلى الـرغم من استمـرار الحروب الصليبيـة قرابـة قـرنين من الـزمان، إلا أن الخاتمة كـانت لصـالح المسلمين وفي صفهم حين استطـاع القـائد المسلم صـلاح الـدين الأيـوبي أن يجمع صفـوفهم ويـوحد كلمتهم ويضعهم على الطـريق، طـريق حماة الدين الأوائل. . طـريق الجهاد العظيم، فكـان أن هزمـوا ملوك أوروبا وأبـاطرتها وقـوادها، وردوهم على أعقابهم خاسرين يجرجرون أذيـال الهزيمة، ويلعقـون جراح الذل والـعـار[1].

ومرت ظـروف أخرى بـالعالم الإسلامي انهارت خـلالها الخلافة الإسـلامية في بغـداد تحت ضربات جحـافل التتـار الـذين قـدموا من أواسـط آسيا، يحرقـون ويخربون ويدمرون . . كالإعصار العاتي لا يجد من يصده أو يقف في طريقه.

وشـاء الله ـ جلت قدرتـــه ـ أن تتوحد كلمة المسلمين تحت قيـادات إسلامية واعية رائعة مثل شيخ الإســلام أحمـد ابن تيمية، وشيـخ الإســلام العز بن عبد السـلام وقطـز. . . وغيرهم، فأوقفـوا اندفـاع ذلك الإعصـار العـاتي وردوه على أعقابه خاسرا، في معركة «عين جالوت» الشهيرة.

وفي الشمال الشرقي من العـالم الإسـلامي ظهـر الأتـراك العثمانيـون بـدولتهم الفتيـة، تلك التي حملت لـواء الإسـلام واجتازت بـه الفـاصل الضيق بين آسيـا

---

(١) يمكن لمن أراد التزود حول هذا الموضوع أن يعود لكتاب الدكتـور ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الـدين وهكذا عـادت القدس، الدار السعوديـة للنشر والتوزيع، جـدة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

وأوروبا، وتوغل مجاهدوهـا في قلب أوروبا الشرقي، مجاهدين في سبيل الله حتى دقوا أبـواب فيينـا عـاصمة النمسا. وصعقت أوروبـا حين وجدت نفسهـا وقد انحشرت كالبنـدقة في كسّارتها، فهؤلاء هـم المسلمون في شرقها يدقـون أبوابها، بينما إخوانهم في أقصى الغرب قد فتحوا بلاد الأندلس، وأقاموا فيها حضارة فتية ذات إنجـازات متميزة، وهم لم يكتفـوا بذلك، بـل أخذوا يسعـون لفتح فرنسـا كذلك.

ومـرت فترة من الوقـت تيقظت خلالها أوروبـا، في الـوقت الـذي أخلد فيـه المسلمـون للنوم العميق، والسبـات القاتل، وضـاعت أيـام عزيـزة غاليـة على المسلمين، وخصوصا حين عرفت أوروبا طـريقها إلى العلوم والكشوف، بعد أن أخذت أسسهـا ومبادئهـا من علوم المسلمين ومعارفهـم ومكتشفاتهم، بل ومن تطبيقاتهم العلمية في مجالات الحياة المختلفة (١).

وران صمت مريب على ميـاه البحر المتوسـط، تلك التي ارتادها المجـاهدون المسلمون فيما سبق، حتى حـولوها إلى بحيرة إسـلامية، ثم فزعت هـذه المياه في نهاية القرن الثـامن عشر الميلادي حين خرجت من شواطى فرنسا الجنـوبية حملة بحرية قوية متقدمة تحمل ضمن ما تحمل المدفع.. والبارود.. والمطبعة..!!

ووصلت حملة «بونابرت» إلى الشواطئ المصرية عام ١٧٩٨م، مفتتحة عصرًا جديـدًا بين الشرق المسلم، والغرب النصراني، ودفع المسلمـون غاليا.. وغـاليًا جدًّا.. ثمن نـومهم، وثمن بعدهم عن الدين، وثمن تركهم للجهـاد. وكذا ثمن بعـدهم عن العلم الـــذي حثهم الإسـلام عليـه وعلى تحصيلـه والسعي في سبيله، وما زالوا منذ ذلك الحين يدفعون.. حتى اليوم..!!

---

(١) محمـد عبـد العليم مرسي: البحـث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعـوقـات الحاضر، مرجع سابق.

وإذا كان «بونـابرت» قد افتتح عصر الحروب الصليبية الجديدة بـدخول خيله إلى ساحـات الأزهر، فإن هـذه الحروب لم تنقطع، ولم تتوقف منـذ ذلك الحين، وهي تقترب الآن من نهاية قرنها الثـاني، فلا يزال الحقد الدفين هنـاك وهو الذي جعل أحد قـواد أوروبا النصرانية يقـف في نهاية الحرب العالميـة الأولى، أمام قبر صـلاح الـدين في دمشق، ليقول في شماتـة لا تليق بـالـرجـال الكبار : هـا قـد عـدنـا . . يـا صـلاح الديـن، وما هكـذا يفعل القـائـدة الشرفـاء أمـام قبـور الأعـداء[1]!!

وعلى طريق هذه الغزوة الصليبية الجديدة دفعت شعوب إسلامية أخرى كثيرًا من دماء أبنائها ومن أرواحهم، ففي الجزائر دفعـوا . . وبغزارة شديدة، وكذا في الشمال الأفـريقي المسلم عـامـة حـدث هـذا، ولن ينسى التـاريخ، ولا ينبغي للمسلمين أن ينسوا، ما فعلته إيطاليا النصرانية مع ليبيا المسلمة، ومع مجاهديها وعلى رأسهم الشيخ الشهيد عمـر المختار، وفي مصر حـارب المسلمون مـوجات الصليبية الجديـدة التي تمثلت في الحملـة الفرنسيـة، والحملة الإنجليـزية الأولى على رشيد عـام ١٨٠٧م، ثم الحملة الإنجليـزية الكبرى عـام ١٨٨٢م، والتي أذلت شعب مصر ونهبت مقـدراتـه على مـدار ثـلاثة أربـاع القـرن، ومـا زالت الهجمة الصهيونيـة الصليبية التي اشتركت فيها إنجلترا وفرنسـا وإسرائيل، عام ١٩٥٦م، ما زالت ماثلة في الأذهـان.

وفي كثير من بلاد أفريقيا وآسيا دفع المسلمـون . . وما زالوا يدفعون الكثير من دمائهم وأرواحهم ومقدرات أوطانهم . . فقط . . لأنهم مسلمون، وفقط . . لأن أعداءهم الصليبيين الجدد لا يـريدون أن ينسوا أنهم هزمـوا ذات يوم على أيدي

---

(١) حسان محمد حسـان : وسائل مقاومة الغزو الفكـري للعالم الإسلامي، رابطة العـالم الإسلامي، مكة المكرمـة، ١٤٠١هـ.

المسلمين، كما أنهم يخشون أن تقوم للإسلام قائمة من جديد، وقد تعلموا من درس التاريخ أن المسلمين حين يتحدون، وحين يعودون إلى دينهم القويم يكون لهم شأن آخر.

وإذا كان بعضنا يتصور أن هذا الذي نقول هو مجرد تاريخ مضى وانقضى فإننا نحيلهم إلى ما يجري على أرض فلسطين اليوم، وما كان يجري على أرض أفغانستان فقط منذ بضع سنوات (*)، ولا زلنا نعيش ونرى، ومعنا العالم أجمع، مأساة المسلمين في «البوسنة والهرسك»، أو في يوغوسلافيا السابقة، ولا يتصورن أحد للحظة واحدة أن «الصرب والكروات» كانوا يستطيعون أن يصمدوا في هجومهم الإجرامي الصليبي على المسلمين في البوسنة والهرسك لولا أن أوروبا كلها والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يقفون خلفهم يؤيدونهم في الأمم المتحدة ويناصرون قضيتهم، في الوقت الذي يمنعون فيه السلاح عن المسلمين، بينما يغدقون كل ذلك السلاح على الصرب والكروات ويمدونهم بالتدريب والتمويل. وما كل ذلك إلا ليمنعوا قيام دولة للإسلام في قلب أوروبا قد يغري وجودها ـ في المستقبل ـ أعدادا من الأوروبيين بالدخول في الإسلام. ومأساة شعب الشيشان نعيشها الآن والكل يرى ويسمع ما يجري لشعبها المسلم على أيدي الروس الكفار.

وإذا كان المصريون قد استطاعوا بعد كفاح طويل أن يكسروا شوكة الإنجليز ويخرجوهم من مصر، وإذا كان الجزائريون قد استطاعوا بتضحيات رهيبة أن يرغموا الفرنسيين على ترك الجزائر، وكذلك فعل الليبيون مع الإيطاليين المستعمرين، وإذا كان المجاهدون الأفغان قد مرغوا سمعة الاتحاد السوفييتي العسكرية في الوحل، وأذلوا جنرالاته وجعلوهم يغادرون التراب الإسلامي في

---

(*) يمكن مراجعة كتاب «أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ، للمؤلف.

أفغانستان مهزومين مدحورين، وإذا كان شباب الانتفاضة الفلسطينية ما زالوا شوكة مؤلمة في جسد الكيان الإسرائيلي، أقول إذا كان ذلك هو الذي حدث، ولا يزال يحدث في بلاد المسلمين إلا أن قضية «البوسنة والهرسك» لها وضع خاص؛ لأن رعب الصليبيين موجه لموطئ أقدامهم، فرغم محاولاتهم حصار الإسلام في بلاده، ورغم جهودهم التي لا تتوقف في عمليات التنصير إلا أنهم فوجئوا بظهور المسلمين كدولة في قلب أوروبا، بل وصمودهم واستشهادهم دفاعًا عن دينهم، ومن هنا فإن شعوبهم لم تثر ضد عجز حكوماتهم الظاهري، وتخطيطهم المفهوم، بل وكذلك مؤسساتهم وبخاصة الفاتيكان. . إنهم جميعًا ضد الإسلام والمسلمين دون مداراة أو حتى محاولة إخفاء، ولن يستريحوا حتى يقضوا على مشروع الدولة الإسلامية في أوروبا، والله من ورائهم محيط وهو - سبحانه وتعالى - غالب على أمره.

## الدرس الذي تعلمه الصليبيون:

وإذا كان هؤلاء الصليبيون الجدد قد خرجوا بدرس واضح تعلموه من حروبهم المتتالية مع المسلمين فهو أنه من الصعب، بل ربما من المستحيل، أن يخرجوا المسلمين عن دينهم الحنيف، خصوصا في المنطقة العربية التي كانت مهد الرسالة، ومبعث النبي الأمين محمد بن عبد الله ﷺ، ومن هنا فلقد تفتق فكرهم الشيطاني عن بديل خطير للحرب المباشرة. . وكذا للتنصير الواضح أمام الناس.

ولقد تمثل هذا البديل في محاولات «التغريب» و«الغزو الفكري والثقافي» عامة لبلاد المسلمين. وإذا كانت الحروب العادية قد استخدمت فيها الدبابة والمدفع والطائرة والبندقية، فإن السلاح الجديد تمثل في استخدام المدرسة والكتاب المدرسي والمنهج المنحرف، والصحيفة والمجلة، والسينما وشرائط الفيديو والكاست والبث المباشر. . وغيرها.

وإذا كانت الصليبية - في صورتها القديمة - قد احتاجت ذات يوم إلى تجنيد الضباط والجنود من أبناء أوروبا ترسلهم إلى بلاد الشرق المسلم، **فيقتلون ويؤسرون حتى قوادهم وملوكهم، فإن الصليبية في صورتها الجديدة أخذت تدرب قساوستها ومعلميها وفتياتها على التعامل الهين اللين والخادع مع شباب المسلمين في بلادنا، وقد أرسلت كل أولئك ليحتموا خلف أسوار سفاراتهم ومدارسهم الخاصة في بلادنا، تلك التي أنشأوها تحت دعاوى التعليم والتثقيف «والتبادل الثقافي»، وهو صورة واضحة للامتيازات الأجنبية السابقة.**

ولنقرأ لواحد من كتابنا الواعين عن «تعدد أشكال الهجوم» على بلاد المسلمين، يقول حسان «إذا كان الهجوم لم يقتصر على جانب واحد، فإنه أيضا لم ينحصر في شكل واحد؛ فتارة يأتي من الخارج، وتارة من الداخل، تارة يهجم بأساليب مباشرة، وتارة يتسلل بأساليب خفية، تارة يتحلق علينا من علٍ، وتارة يتسرب إلينا من أسفل، تارة يتصدره رجال دين، وتارة يقوده سياسيون وعلماء، تارة يرتدي رداء الكهنوت، وتارة مسوح الأطباء، تارة بالهجوم على ديننا، وتارة باصطناع مذاهب ونسبتها إلى الإسلام لتدميره من الداخل. تارة بتصيفة قيادات، وتارة بتصعيد أخرى، تارة بشراء الذمم، وتارة بتوزيع القمح واللبن، تارة بالتهديد، وتارة بالتهويد، تارة بالتمييع، وتارة بالتجويع، تارة بالفكر المضلل، **وتارة بالمدفع المهدد. تارة بالمساعدات، وتارة بقطع العلاقات،** تارة بالتحالف مع المسلمين، وتارة باحتلال المسلمين، تارة بزرع الفتن، وتارة بالتدخل لقمع الفتن، تارة بالتنكيل، وتارة بالتضليل. تارة بالاتفاق مع أقليات، وتارة بتصدير أقليات، تارة بالتسرب إلى منظمات، وتارة بصناعة أخرى، تارة بإعداد انقلابات، وتارة بالانقلاب على ثورات. تارة

بإنشاء كيانات، وتارة بتصفية أخرى. تارة باحتلال القدس، وتارة بادعاء العمل على تحرير القدس، تارة باحتلال أفغانستان، وتارة بالمطالبة بالتحالف لتحرير أفغانستان. تارة بالمهادنة، وتارة بالمقاطعة، تارة بتسريب السلاح، وتارة بمنع السلاح، تارة بإنشاء إسرائيل، وتارة بالدعوة للاعتراف بإسرائيل. تارة بالفرنسة وتارة بأنجلترة. تارة بالأمركة، وتارة بالمركسة»[1].

وإذا كانت الصليبية في صورتها قد فشلت في مواجهة أبطال المسلمين في ساحات الوغى ومعارك الجهاد فإن الغربيين فتحوا أبواب دولهم على مصاريعها يدعون إليها الشباب من جامعاتنا كي يتعلموا هناك، فيذهبون ليضيع منهم جزء في مجتمعاتهم الفاسدة وليعود إلى قومه مسخًا نسي دينه.. وربه.. وقومه، وجاءهم بأخطر مما يجيء به الصليبي الواضح، حيث يطالب بالانفتاح على الغرب بكل ما فيه من حرية وإباحية وانحراف.

إن الصليبية الجديدة.. أو الغزو الفكري والثقافي ـ أو التغريب ـ أيًّا كان المسمى - كانت أذكى بكثير وأفعل من تلك القديمة، حيث أن الأخيرة قد استثارت المسلمين ودعتهم إلى التوحد والمقاومة، وإلى الوقوف خلف قيادات إسلامية مؤمنة داعية. أما الصليبية الجديدة فقد التبست على الكثيرين بسبب أساليبها الجديدة، وبسبب وسائلها المتعددة وبريقها وخداعها وتنوع ميادينها... كل هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن المشكلة الكبرى هي أن الذين حملوا تلك الصليبية ونادوا بها كانوا - في معظم الأحيان - من أبناء الأمة الإسلامية الذين خُدعوا،

---

(١) حسان محمد حسان، مرجع سابق ص ١٢.

إذا أحسنَّا بهم، أو من الذين جعلوا من أنفسهم طابورًا خامسًا لأوروبا المسيحية عن سوء قصد وفساد تدبير

إن خطورة الغزو الجديد أنه لا يركز على احتلال مساحات من الأرض يندفع أهلها فورا للدفاع عنها محاولين جهدهم إخراج الدخلاء المهاجمين، وتطهيرها من رجسهم، إنما الغزو الجديد ميدان مبتكر من ميادين الاستعمار المتلونة بألف لون ولون، فمن خلاله تحتل مساحات في العقول والأرواح، وهذه - لعمري - أخطر آلاف المرات من احتلال مساحات الأرض. إن احتلال مساحات من الأرض يجعل الناس متحمسين للدفاع عنها، أما إذا احتلت العقول، وبلبلت الأفكار والمفاهيم فمن سيدافع عن أصحابها ؟؟!! (١).

إن الإنسان إذا انهزم داخليًّا فإنه يصبح مسلوب الإرادة، عديم الفائدة، إنهم يحاولون محو الشخصية العربية والإسلامية، بحيث يصبح الإنسان المسلم تابعًا لا كيان له، سواء في ذلك الكيان الوطني أو القومي أو الديني، ولا يهم أن يظل اسمه محمدًا، وجنسيته من أي بلد إسلامي، إنما الذي يهم هو أن يكون محمد هذا مستلب الفكر عديم الشخصية (٢).

ويذهب كاتب آخر إلى أن الغزو الفكري هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لدولة بين الدول الكبيرة، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوه

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ص ١٨.

(٢) عبد الكريم غلاب : التعريب ودوره في حركات التحرر في المغرب، المستقبل العربي، العدد ٣٦، فبراير ١٩٨٢م، ص ٨٩.

بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة، وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئًا واحدًا. . هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية.

كذلك فإن الغزو الفكري هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم ـ وخصوصًا الأمة الإسلامية ـ وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية وسير أعلامها وقادتها، فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة، وليس في نفسه مثل إلا ما يقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية، فيذهل عن تاريخه، وعن سير الصالحين من أسلافه، يذهل عن حاضره ومستقبله، ويضل عن معالم طريقه[1].

أما الدجاني فيعتبر أن «الانغماس في تيار القبول المطلق للحضارة الغربية، في مجتمعنا العربي على مدى القرنين الماضيين قد استقطب قلة (مؤمنة) متعصبة قابلة، عبرت عن نفسها جيلا بعد جيل في محاولات تحويل مجتمعها إلى مجتمع غربي. . مبنى ومعنى، شكلا ومضمونًا، ولم تفتر في دعوتها إلى التغريب. ونلاحظ حرص دعاتها على استخدام مصطلحات الغرب ولغاته، وكذا الاستشهاد بتاريخه، كما نلاحظ انبهار أصحاب هذا التيار بكل ما هو غربي، مستشعرين عجزهم عن التعبير بلغتهم، وملصقين هذا العجز بها، كما يلفت النظر أن (التخريب الحضاري) كان كبيرًا حين تولى السلطة مستغربون أرادوا فرض أفكارهم بالقوة، ونكتفي بالإشارة إلى تجربتي أتاتورك وبهلوي المجاورتين للوطن العربي»[2].

---

(١) علي عبد الحليم محمود: الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية، الكويت، (بدون تاريخ)، ص ١١.

(٢) أحمد صدقي الدجاني: الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي، المستقبل العربي، العدد ٦٩، نوفمبر ١٩٨٤م، ص ٩٤ - ٩٥.

والجديد هنا في هذا الرأي هو محاولات فرض التغريب على بعض أوطان العالم الإسلامي من خلال أفراد في السلطة. وبطبيعة الحال فإن استخدام صلاحيات المناصب الكبرى، مثل تلك التي أشار إليها الكاتب تكون ذات أبعاد أوسع في حياة مجتمعاتهم، حتى وإن قاومت تلك المجتمعات، وحاولت دفع تلك الأغلال.

ومن ناحية أخرى ينبغي أن نتوقف عند هذا المعنى، فأصحاب السلطان الذين يميلون بدفة قوارب مجتمعاتهم ناحية التغريب لا شك أنهم لم يتربوا التربية الإسلامية الصحيحة، وإنما ربما يكون العكس هو الصحيح، بل إن بعضهم ربما يكون من خريجي بعض المدارس الأجنبية[1].

## بعض تعريفات ومعاني الغزو الثقافي:

١ - يقول أبو زيد إن «الثقافة الأجنبية الغازية تمثل تحديًا للثقافة القومية؛ لأنها تعبر عن تيارات واتجاهات ومذاهب ثقافية وفكرية تنتمي في الأصل إلى مجتمعات أكثر تقدّمًا وتطورًا من المجتمعات العربية، وأنها تحمل بين ثناياها بذور السيطرة الثقافية الأجنبية على الثقافة العربية. ويبدو أن ثمة استعدادًا لدى بعض قطاعات المجتمع العربي لتقبل كل ما يقدمه الغرب، خصوصا من آراء وأفكار وقيم وأنماط للسلوك، واعتناق هذه الآراء والأفكار والدفاع عنها بغير دراسة أو تمحيص.

وقد يكون السبب في ذلك هو الشعور الكامن بالتخلف العام أمام الغرب في مجالات العلم والتكنولوجيا، وكذلك في الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية، والاعتماد بأن هذا التفوق يستتبع بالضرورة التفوق أو التقدم والرقي

---

(١) محمد عبد العليم مرسي، التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ص ٢٣ - ٢٤.

الثقافي، وأن ذلك يحتم من ثم تقبل حصاد الفكر الغربي وثقافته، مثلما نتقبل نتائج البحث العلمي والتقدم التكنولوجي [1].

**٢ - أما كشك فيقول إن «التغريب» الذي هو ناتج من نواتج الغزو الثقافي والفكري «فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية بأنها متخلفة في جوهرها، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها، ومن ثم فلا بد من انسلاخها تماما عن كل ما يربطها بماضيها، وعن كل ما يميز ذاتها، وإعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية، مع إبقائه متخلفًا عاجزًا عن إنتاج سلع الغرب.. عاجزًا عن اكتساب بعض أفراده هذه المعرفة، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم، فيضطرون إلى النزوح إلى عالم المتفوقين»** [2].

**ثم يحدثنا الكاتب عن المجتمع المغرّب، أي الذي تم غزوه ثقافيًّا وفكريًّا بأنه «هو ذاك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر وأحدث السيارات المستوردة، وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة، وعلى أحدث الموضات الغربية، ويثرثر مثقفوه في قاعات مكيفة بأجهزة أمريكية أو روسية في مشاكل المجتمع الغربي وآلامه، ويملأون صفحات من ورق مستورد، تطبع بحبر مستورد، وبآلات مستوردة، حول قضايا الوجودية ومسرح اللامعقول، والجنس الجماعي، وتطور حركة الهيبيز، على**

---

(١) أحمد مصطفى أبو زيد: التحدي الثقافي، بحث شارك به الكاتب في الندوة الفكرية الرابعة لرؤساء ومديري الجامعات الخليجية (الدوحة - قطر) ربيع الأول ١٤١٠هـ - أكتوبر ١٩٨٩م، ص ١٨.

(٢) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الدار العلمية، بيروت، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م، ص ١٤.

**بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهارسيا والتراخوما . . وكل تراكمات التخلف، منذ القرن السابع عشر** [1].

٣ - وعند أنور الجندي في (شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي) نجد أن مفهوم التغريب يعني «خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ثم تحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها، بهدف سيادة الحضارة الغربية، بل وتسييدها على حضارات الأمم الأخرى، ولا سيما الحضارة الإسلامية [2]. وإذا كان المستشرقون والمبشرون (المخربون) قد ذكروا أهدافًا لهم في خلق أجيال جديدة من العرب والمسلمين «تحقر كل مقومات الحياة الإسلامية، بل الشرقية، وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه، فقد عملت حركة التغريب في موالاة عجيبة ودأب بالغ على تدمير الشخصيات العربية الإسلامية الباهرة، والتشكيك في عظمتها» [3].

٤ - أما جدعان فهو يبين لنا الخطوات أو الأسس التي اعتمد عليها هؤلاء الغزاة بمنتهى الوضوح، فهي تعتمد على :

أ - نبذ الشرق والعرب والإسلام، ومحاولة اللحاق بالغرب والمدنية الغربية، بل والفكرة الغربية، بكل حسناتها وسيئاتها.

ب - تحرير العقول (؟؟) من كل سلطة عقلية سابقة، والنظر إلى موضوعات المعرفة والمجتمع الإنساني نظرة غربية، على أساس النظرة العقلية المتفردة، المدعومة بالفكر الوضعي الخالص.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) في : علي خليل أبوَ العينين : أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ص ٢١٠ - ٢١١.

(٣) المرجع السابق.

جـ - تأسيس الدولة، وكافة تنظيمات المجتمع، على أساس علماني، أي على قواعد وأسس غربية . . لا دينية، ليس للإسلام فيها أي توجيه أو دور، وبمعنى آخر فصل الدين عن الدولة والسياسة والمجتمع، وحصره في دائرة شخصية جدًّا[1].

٥ - أما علي عبد الحليم محمود فيرى أن الغزو الفكري «هو أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوب، فضلا عن أن تحل محلها، أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية والإقليمية، وما دام الإنسان لا يفكر إلا باللغة - كما يجمع على ذلك العلماء - فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها، وإحلال لغة أمة محل لغة أمة أخرى هو إجبار للأمة المغلوبة على أن تفكر كما تفكر الأمة الغالبة، وأن ترى من العادات والتقاليد مثل ما ترى الأمة صاحبة اللغة الغازية، وما سكتت أمة غازية في تاريخنا المعاصر عن لغة أمة مغزوة (*)، وإنما تخطط لحربها بالضراوة نفسها التي تخطط بها للاستيلاء على مقدراتها الاقتصادية [2].

ويوسع الكاتب السابق مفهومه للغزو الفكري فيقول إن القضية أوسع من اللغة ومن الفكر ومن الثقافة، ومن كل هذه الأشكال. «إن الغزو الفكري

---

(١) فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(*) لعل القارئ الكريم يتذكر أن فرنسا حينما احتلت الجزائر فرضت لغتها على الجزائريين المسلمين، وحاربت لغة القرآن الكريم على مدار ١٣٢ سنة هي فترة احتلالها لها، ولا زالت قضية التعريب تحتل جزءًا كبيرًا من جهود الإخوة الجزائريين، كذلك فإن انجلترا حاولت أن تفرض التعليم باللغة الإنجليزية ولو في بعض المقررات في مصر، ويذكر أن كلية الطب التي أنشئت في مصر في عهد محمد علي كان التدريس فيها باللغة العربية، وكلنا نعلم الآن أن تدريس الطب في الجامعات العربية يتم باللغة الإنجليزية. . !! اللهم إلا في القطر السوري الشقيق.

(٢) علي عبد الحليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ١٣٩٦هـ، (القسم الأول)، نشرته عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٠٠٩.

لـلإسلام والمسلمين - في حقيقـة الأمـر - يستهدف الجذور لا القشـور، ويحاول القضاء على الجوهـر لا العرض، ويركـز على تشويه الأصـول لا الفروع. . ومن هنا تركز الغزو الفكري ضد الإسـلام في حرب ضارية ضد أمرين خطيرين هما : **القرآن الكريم** أصل الشريعـة، وما شرحـه وفصّلـه من سنة رسـول الله ﷺ، في الـعالم الإسـلامي كله. **واللغة العربية**، لـغـة الـقرآن والإسـلام، وذلك في العالم العـربي بالـدرجـة الأولى، وفي كل مكـان يمكن أن يعنى باللغة العـربية بعد ذلك.

وكل عمل وكل خطة يقوم بها أعداء الإسلام والمسلمين في الفكر أو الثقافة أو المبدأ أو المذهب أو العـادات والتقاليـد، أو الأدب والفن، أو الزي أو الشكل، إنما يعد معركـة جانبية فرعيـة تخدم المعركة الكبرى، معركـة حرب أصل الإسلام وجذوره، وهو القـرآن الكريم، وحرب لغـة القرآن. . اللغة العربيـة، وما أكثر المعارك الجانبيـة، وما أخبث خططها، إذ تتنـاول مظاهر حيـاة المسلمين كلها، ابتـداءً من تغيير الـزي، وتغيير العـادات، إلى تغيير الخلق والسلـوك، وانتهـاء بتغيير المنهج والشريعة، ومرورًا بإفساد اللغة وإقصائها عن ألسنة المسلمين، أي إقصاء القرآن الكريم عن ألسنتهم وقلوبهم وحياتهم[1].

ويحدد الكاتب مظـاهر الغزو الفكري وتيـاراته في حملات التشويه لـلإسلام، كتابـه وسنة رسوله ﷺ وشخصـه الكريم المعصوم، وحملات التشويـه للتاريخ الإسلامي، ونظام الحياة الإسلامي، وللتراث الإسلامي كلـه.

كما نستطيع أن نـدرك مظـاهـر هـذا الغـزو في حملات التغـريب للحضـارة الإسلاميـة، وللمسلمين أنفسهم، كتغريب التعليم والثقـافة والنظم الاجتماعية

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٠ - ١١.

والسياسية والاقتصادية، وتغريب الأخلاق والآداب، ثم تكون قمة التغريب بتغريب اللسان، لقطعه عن لغة القرآن الكريم، اللغة العربية الفصحى.

ولقد قامت على نشر هذا الغزو الفكري وترويجه مؤسسات عديدة، ومراكز خطيرة، منها الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات المعادية للإسلام، مثل الديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والقومية، ومنها الفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية، واتخاذ العري مذهبا، واتخاذ التخنث للرجال، والترجل للنساء أسلوبًا في الحياة.

ومنها وسائل التخريب التي توجهها الصهيونية في الغالب لهدم القيم الخلقية، كالسينما والمسرح والملاهي والنوادي والجمعيات الهدامة كالماسونية و«أندية الروتاري»، وغيرها. وهذه كلها ركائز للغزو الفكري، ونقط انطلاق تتحرك منها الحملات، وتنطلق لتغزو، ثم تعود بكل خبيث هدام من وسائل حرب الإسلام والمسلمين[1].

٦ - ويحدثنا «سعيد» كيف أن «الغزو الفكري» تعبير دقيق بارع، يصور خطورة الآثار الفكرية التي قد يستهين بها كثير من الناس؛ لأنها تمضي بينهم في صمت ونعومة، مع أنها حرب ضروس لا تضع أوزارها حتى تترك ضحايا بين أسير وقتيل، أو مسيخ، كحرب السلاح، أو هي أشد فتكًا.

وهذا التعبير على حداثة مبناه إلا أنه قديم المدلول والمعنى، وتتفاوت الأمم والجماعات فيه، من حيث الدرجة لا النوع، ذلك أن الجماعات البشرية تعيش أبدًا متنافسة في سبيل هدف ما، كالاعتقاد حقًّا أو باطلاً، وكالتفوق المادي أو الأدبي وحب السيادة، والاستئثار بالمنافع، ونحو ذلك مما عبر عنه القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز ﴿ **أن تكون أمة هي أربى من أمة** ﴾ [النمل : ٩٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٣ - ٢٤.

ومن ثم تبذل كل أمة غاية جهدها لكسب هذا الصراع باليد والسلاح، أو بالفكر واللسان، أو بأي من أنواع المؤثرات الأخرى التي زينت للناس، كالمال هدية أو رشوة . . . إلخ. «فالغزو الفكري» واحد من شُعَب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما، لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده، وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحول حتى يصبح ذاتيًّا إذا أمكن، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب، وإن كان في الوقت نفسه، هو أقصى درجات نجاح الغزاة.

وسلاح هذا الغزو : الفكرة، والكلمة، والرأي، والحيلة، والنظريات والشبهات، وخلابة المنطق، وبراعة العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف والصاروخ في أيدي الجنود، والفارق بينهما هو الفارق نفسه بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديمًا، وحديثًا.

ويتميز الغزو الفكري بالشمول والامتداد، فهو حرب دائمة دائبة، لا يحصرها ميدان، بل تمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعًا، وتسبق حروب السلاح، وتواكبها، ثم تستمر بعدها لكسب ما عجز السلاح عن تحقيقه، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته حتى يلين ويستكين، وتنقض تماسكه النفسي حتى يندب كيانه، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه أو يصبح امتدادًا ذليلاً لهم، بل ربما تبلغ حدًّا من الإتقان يصل إلى أغوار النفس، فتقلب معاييرها ومفاهيمها، وتشكل لها أنماطًا جديدة في السلوك، والأخلاق، والأذواق إلى الدرجة التي تجعل المهزوم يفخر فيها، ويراها شرفًا خليقًا بالرضا والشكران[1].

---

(١) عبد الستار فتح الله سعيد : الغزو الثقافي والتيارات المعادية للإسلام، (القسم الثاني) ضمن بحوث المؤتمر السابق، ص ص ١٧٩ - ١٨٠.

٧ - أما الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني فيحدثنا عن خطط «الغزاة» التفصيلية في أعمال الغزو الفكري، فيقول إنهم اتخذوا عددًا وافرًا وفعالا من الخطط، منها :

أ - إثارة الشبهات حول القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأحكام الإسلام وتشريعاته.

ب - دس الأفكار الفاسدة، وإغراء بعض ضعاف النفوس، أو ضعاف العقول من المسلمين باعتناقها على أنها من تعاليم الإسلام ومفاهيمه، ثم محاربة الإسلام بها.

جـ - اختلاق الأكاذيب والافتراءات على الإسلام وتاريخ المسلمين، وتشويه غايات الفتح الإسلامي.

د - مقابلة بعض أحكام الإسلام وأركان تشريعاته بالاستهزاء والسخرية والازدراء، ووصف المستمسكين بها بالرجعية والتآمر والتعصب والجمود، ونحو ذلك من العبارات التي تضعف حماس المتدينين للتمسك بدينهم، وتفت في أعضادهم، وتسوقهم في ركب المتحللين من الدين.

هـ - احتقار علماء الدين الإسلامي وازدراؤهم، وإلجاؤهم إلى أضيق مسالك اكتساب الرزق لتنفير المسلمين منهم ومن طريقتهم، ثم تقديم جهلة منحرفين إلى مراكز الصدارة ليعطوا صورة مشوهة سيئة عن التطبيق الإسلامي، توصلا إلى تشويه الإسلام نفسه عن طريقهم.

و - متابعة تركيز الهجوم ضد الإسلام، وتكراره بإلحاح، أملا في حدوث الغفلة من الدعاة المسلمين الذين ينشرون المفاهيم الإسلامية، ويحذرون من دسائس الغزاة. ونحن نعلم ما للتكرار من تأثير في نفوس الناس، ولو كان مضمونه كذبًا وباطلاً، وهذا هو ما تلجأ إليه وسائل الإعلام الحديثة المضللة للجماهير.

ز - بث النظريات والأفكار والمبادئ الإلحادية، والنظريات والأفكار والمبادئ المناقضة والمخالفة لأسس الإسلام، وتعاليمه، وشرائعه، وأحكامه في مختلف المجالات الاعتقادية والأخلاقية، والعلمية، مما يتعلق بأحكام العبادات المحضة، أو أحكام المعاملات.

وتبرز هذه النظريات في الفلسفة، وفي العلوم الإنسانية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وفي علم التاريخ وتفسير ظواهره، وفي علوم القوانين الوضعية وتعليل نظرياتها، إلى غير ذلك.

ح - استدراج فريق من أبناء المسلمين لجامعاتهم، لمنحهم الشهادات العليا في علوم الشريعة الإسلامية، وعلوم اللغة العربية، والعلوم الإنسانية، ومحاولة التأثير فيهم، وتشويه صورة الإسلام والتاريخ الإسلامي والعلوم الإسلامية في أفكارهم وفي نفوسهم، ليكونوا جنودًا مقنّعين لهم، يحققون أغراضهم داخل شعوبهم المسلمة.

ط - تفريغ أفكار الأجيال الناشئة وقلوبهم ونفوسهم من محتوياتها ذات الجذور العقلية والعاطفية والوجدانية والأخلاقية، وانتزاع كل آثار لها، وهو ما يسمى بعملية «غسيل الدماغ». ثم ملء فراغ هذه العقول والقلوب والنفوس بمخترعات فكرية وعاطفية مزورة، تخدم غايات العدو الطامع الغازي، وتهدم كيان الأمة الموضوعة هدفًا للغزو، ثم من بعد ذلك تسخير طوابير الجيش الجديد الذي تصطنعه أيدي العدو في هدم كل مقوم من مقومات أمته، ومحاربة كل ما يتبقى لها من فكر وعقيدة، أو خلق وسلوك، أو تاريخ ومجد.

٨ - ويحدد التركي مفهوم «الغزو الثقافي» بأنه «كل فكرة، أو معلومة، أو برنامج، أو منهج، يستهدف ــ صراحة أو ضمنا ــ تحطيم مقومات الأمة الإسلامية: العقدية، والفكرية، والثقافية، والحضارية، أو يتحرى التشكيك

فيها، والحط من قيمتها، وتفضيل غيرها عليها، وإحلال سواها محلها، في الدستور، أو مناهج التعليم، أو برامج الإعلام والتثقيف، أو الأدب والفن، أو النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة» (١).

وكما نلاحظ فإن الكاتب هنا أورد نظرة شمولية متكاملة لكل ما يتعرض لمقومات الأمة ومؤسساتها، في العقيدة.. أهم ما تحرص عليه الأمة وتتمسك به، بل وتعض عليه بالنواجذ، إلى مقومات الأمة الفكرية والثقافية والحضارية، وهي التي تبين هوية الأمة وما يميزها من غيرها من الأمم، وليس فقط من يتعرض لها، ولكن حتى كل من يحاول التشكيك في تلك المقومات، أو الحط من قيمتها وقدرها، ومعنى تفضيل غيرها عليها وإحلال سواها محلها أن أولئك الذين يعيشون بيننا يستوردون دساتير من الخارج نحكم بمقتضاها، أو مناهج تعليمية نعلم أبناءنا على أساسها، أو يستوردون برامج تليفزيونية وإذاعية ينشرونها بين مجتمعاتنا وهي لا تناسب قيمنا وعقيدتنا وتقاليدنا، كل هؤلاء - على وجه اليقين - من دعاة الغزو الثقافي، بل إن الذين يعيشون بيننا منهم أخطر علينا من الأعداء الواضحين الصريحين؛ لأنهم يلتبسون على كثيرين منا، وفي بعض الأحيان يصعب إقناع الناس بالحكم عليهم؛ لأنهم شديدو التلون والتخفي.

٩ - أما حنفي بن عيسى، وهو أحد المفكرين الجزائريين فيربط بين الغزو العسكري، والغزو الثقافي مبينًا أن الأمة العربية والإسلامية تعرضتا على مدار تاريخهما الطويل لمعارك طاحنة.. معارك عسكرية، وأنهما ما زالتا تتعرضان

---

(١) عبد الله بن عبد المحسن التركي: تحديد مفهوم الغزو الثقافي، ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، بجاية - الجزائر، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٣.

لمعارك الغـزو الثقافي، فهو إذن قد وضع معـركة الغزو الثقـافي على نفس مستوى معركة الغزو العسكري المسلح، وهذا هو الفهم الصحيح للأمور.

وفي هـذه المعـركـة، معـركـة المصير، نجـد الشعب العـربي، من المحيط إلى الخليج، صامدًا كـالطود الشامخ، واقفًا بالمرصاد أمـام كل المناورات؛ لأن الأمة العربية، منذ أن برزت للوجود وهي على مـوعد مع التاريخ في صناعة الأحداث الكبرى التي قدمت تغييرات نوعية في الحضارة الإنسانية. ولكن رغم أن الأقطار العـربيـة تحررت من ربقـة الاستعمار، فـلا يجوز مع ذلك أن نكـون غـافلين عما يهددنـا مـن غـزو ثقـافي، بكل مـا يحملـه من دسٍّ في التراث، وتشكيك في العقائد، وزعزعـة للنفوس، وسلب لمقومـات الشخصية، كما لا يجوز أن نكون غافلين عن خطـر الغزو العسكري الذي لا يزال يهددنـا في كل حين من طرف الصهيونية والإمبريالية: فالأسـاطيل الأجنبية ترابط غير بعيد من شواطئ البحر المتوسط، تحصى علينا حركاتنا وسكناتنا، والأقمار الصناعية تجوب الفضاء فوق أراضينـا، وتترصد بنـا الدوائر، وتستكشف وتستجمع المعلـومات عما تـزخر بـه أراضينا من موارد وثروات، تمهيدًا لوضع الخطط العدوانية، ويكفي أن أستشهد في هذا المقـام بما صرح به القـائد العسكري الصهيـوني «أرييل شـارون» في شهر ديسمبر ١٩٨١م، من أن «منطقـة النفوذ العسكـري لإسرائيل سوف تتـوسع في الثمانينيات إلى مـا وراء العالم العربي، وسوف تشمل بلـدانًا أخرى، مثل تـركيا، وإيران، وباكستان، بل حتى شمال إفريقيا، وإفريقيا الوسطى» (١).

---

(١) حنفي بن عيسى: الثقـافة العـربيـة في معركـة المصير - خطر الغـزو الثقـافي، ضمن بحوث الخطـة الشاملة للثقافة العربية، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ص ٦٧٧ - ٦٧٨.

١٠ - ويفصل «العالم» أشكالاً متنوعة للغزو الثقافي «تتم بشكل غير مباشر، عبر وسائل الإعلام والثقافة، وتتمثل في برامج الإذاعة والتليفزيون السياسية والاجتماعية والترفيهية والتثقيفية، فضلاً عن الأفلام السينمائية والمسرحيات والكتب، بل مظاهر الحياة الاستهلاكية البذخية.

إن الدول الرأسمالية الكبرى هي التي تسيطر أساسًا على وسائل الإعلام والاتصال الفكري والعملي، بما يتيح لهذه القوى الرأسمالية السيطرة على ثروات وطاقات الشعوب، وبخاصة شعوب البلدان النامية (اسمًا . . !!) والمتخلفة، فضلا عن المسيطرة على عقولهم ومشاعرهم، وأذواقهم وقيمهم، سيطرة تشيع روح التسطح واللاعقلانية واللامبالاة واليأس والاستهلاك البذخي والاغتراب والتفسخ»[1].

وحتى نتأكد من المقولة السابقة، أي سيطرة الدول الكبرى على وسائل الإعلام نقرأ: «إن الولايات المتحدة أكثر الدول الأجنبية تصديرًا للبرامج التليفزيونية إلى دول الخليج . . . ولعل الغزو الثقافي، من خلال جهاز التليفزيون، لا يقتصر على منطقتنا، ففي دراسة نشرت في السبعينات بيّنت أن برامج التليفزيون الأمريكي تبيع للعالم الخارجي من ١٠٠ ألف ساعة إلى ٢٠٠ ألف ساعة سنويا، ثلثها تقريبًا إلى أمريكا اللاتينية، والثلث الآخر للشرقين الأقصى والأوسط، والباقي لأوروبا الغربية.

هذا وتعمل شركات الإنتاج التليفزيوني في أمريكا لبيع برامجها حتى بأقل من أسعار التكلفة إلى الخارج؛ لأنها تكون قد حصلت على أرباحها من البيع الأول

---

(١) محمود أمين العالم: الغزو الثقافي والتخطيط المستقبلي للثقافة العربية، ضمن بحوث الخطة السابقة، ص ٢١٧.

في السوق الأمريكيـة، وهذا بحد ذاته يعطل من محاولات الإنتـاج المحلية للدول النامية، ويفقـدها المنافسة، كل ذلك من أجل تسويق نمط الحيـاة الأمريكية. ونجـد أن الـدراسـات تشير إلى أن المثقفين (المتعلمين) في العـالم الثـالث أكثـر استهـلاكًا للبرامج الأمـريكية والغـربيـة على السواء من الفـلاحين وأبناء القـرى عديمي التعليم. وهنا نجـد أن هناك ارتباطًا طرديًّـا بين التعليم الغربي والإعلام الغربي، لقد أصبح الاتصال الجماهيري في العـالم يخضع لصناعة ضخمة يمكن أن تسمى الصنـاعة الثقـافية، تملكهـا شركات عبر وطنيـة Multi-National، في ثقافة تسيطر عليها التكنولوجيا المتقدمة(١).

وحتى نرى أثر التليفزيون كأحـد أقوى عناصر الغزو الثقافي في الخليج، إن لم يكن أقواها جميعًا، نقرأ ما يقوله أحد المسئولين في الخليج «ويساعد التليفزيون في الخليج - رغم كل المحـاولات التـي تجري لضبط مستخـرجـاتـه (لعلـه يقصـد مخرجـاته) - على إشـاعة الثقـافـة الاستهلاكيـة بطـريق غير مباشر، أو بطـريق مباشر. . . إن الكثير من محطات التليفزيون والإذاعـة في المنطقة تساهم مساهمة كبيرة في ترسيخ هـذه التبعية، عن طريق عرض الإعـلان التجاري. . . إن آخر الصيحات في عـالم موديـلات الملابس والسيارات والتليفـزيونـات والمسجلات وآلات الفيـديـو والألعـاب الإليكترونيـة تشهـد على ذلك التحـول الـدائم عبر القـارات، ومعـارض الألماس والأزيـاء تـؤكـد أننـا نتجـه إلى الآثـار الجانبيـة للحضارة»(٢).

---

(١) محمد الرميحي: الثقافة في الخليج، مرجع سابق، ص ٥٨.
(٢) المرجع السابق.

# أفكـار حول الغزو الثقافي

كما سبق القـول فإن هذا الغـزو الثقافي قـد التبس على كثيرين من أبناء الأمـة الإسلامية، وأبنـاء الخليج من بينهم بطبيعة الحال، وهذه هي خطـورته، ولعلنا نمس عددًا من النقاط التي توضح قضيتـه، وتبين مخاطره على الأمة الإسلامية، كما تبين بعض التناقضات التي تصاحبه في مجتمعاتنا.

**أولاً :**

أصبح من المسلم به الآن أن بلاد المسلمين كلها، تقـريبًا، واقعة تحت مطرقة الغزو الثقافي، بصورة أو بأخرى، سواء شعـر به المسلمون وتنبهوا لـه، أو غفلوا عنه ولم يتيقظوا بعد لمخاطره، أو أنهم ربما عرفوا بوجوده بينهم، ولكنهم يخدعون أنفسهم ويتعامون عن نتـائجه، أو أنهم - كذلك - يدرون بـه ولا يعرفون كيف يواجهونه أو يتعاملون معه.

ومن بلـد إسلامي لآخـر تختلف الصور وتتفـاوت، ففي بعضها يتضح هـذا الغـزو في مظـاهـر السير وراء الغـرب في العـادات والتقـاليـد، وفي الملابس والموضـات، وفي بعضها الآخـر اقتبست القـوانين الـوضعيـة للدستـور، وأهمل العـمـل بـدستـور الأمة المـفترض، الـذي هـو الـقـرآن الكريم، ودرّست القـوانين الوضعيـة لطـلاب كليات الحقـوق بكثـافة شـديـدة، وذرا للرمـاد في العيـون، أو خداعـا للنفس، وضعت ساعـة أو ساعتـان في مقررات للشريعـة الإسلاميـة.

وفي البعض الثالث اتضح الغـزو وآثاره في منـاهج التعليم وخططه، حتى إن اللغة الأجنبية ـ الإنجليـزية عـادة ـ طغت على مقررات الهويـة الإسلامية واللغة العـربيـة، حتى لمدرسي اللغة العـربيـة ولطـلاب أقسام الإعـلام، ومعـروف أن المعلمين والإعلاميين هم الذين يتولون توجيه الأمة صغارها والكبار.

وفي جميع الدول الإسلامية، بلا استثناء، طغت البرامج التلفزيونية المستوردة على البرامج المحلية، بكل ما فيها من قيم غير قيمنا، وعادات غير عاداتنا، وتقاليد غير تقاليدنا، وحتى حينما حاولت بعض بلادنا إنتاج بعض البرامج وجدنا أن ما أنتجوه جاء في معظمه تقليدًا ممسوخًا لما استوردوه، فانصرف الناس عنهم وأصبحوا أسرى لذلك المستورد الخطير.

**ثانيًا :**

من الأمور العجيبة أن بلاد العالم الإسلامي هي التي تستدعي ذلك الغزو الثقافي إلى أبنائها، فهو ليس مفروضًا عليها بالقوة، كما كان الغزو المسلح قبل ذلك، وإنما هي التي تجلبه إلى ديارها . . . وباختيارها، ويصف التركي هذه الظاهرة بأنها «جد عجيبة وغريبة ومذهلة»، أي ظاهرة «استدعاء الغزو الثقافي»، وبسخرية لاذعة ومعبرة يطلق عليها «دفع الإيجار للغزاة مقابل غزوهم لنا» (!!!)، إذ من المعروف أن معظم المجتمعات الإسلامية تستورد أكثر من ٧٠٪ من مادتها الإعلامية، سواء كانت هذه المادة برامج أم مسلسلات أم أفلامًا، أم تقارير إخبارية. ومن المعروف أن منتجي ما يستورده العالم الإسلامي ليسوا على ديننا ولا على عقيدتنا أو ثقافتنا، ومن ثم علينا أن نتوقع، بل ونعرف ما ينتجون.

إن لهؤلاء المنتجين والمصدرين عقائدهم وأفكارهم وثقافتهم، ومن العسير أن نحملهم على أن يفكروا كما نفكر، ونفي قدرتنا على ذلك يترجم ــ لفوره ــ إلى مسلمة لا مراء فيها وهي : أن أولئك المنتجين إنما يخدمون فكرهم وثقافتهم وغرضهم السياسي والتجاري وهم يكتبون القصة، وهم يخرجونها في هذا الشكل الإعلامي أو ذاك، وهم يصدرونها إلى المجتمعات الإسلامية.

وهذه الصادرات ضرب من الغزو الثقافي، سواء أقصد المصدر الغزو وتحراه أو عبّر - تلقائيًّا - عن ثقافته وفلسفته وواقعه، فالمريض قد لا يتعمد أن يؤذيك بما فيه، بيد أن ما يحمله من مرض معدٍ سيلحق بك الأذى بطريقة تلقائية، كما يقول التركي[1].

**ثالثاً :**

من مخاطر الغزو الثقافي أنه لا يمكن نسبته إلى جهة واحدة تقوم به أو تخطط له، وإنما هناك عشرات وعشرات من الجهات والمؤسسات «فعشرات الأجهزة، كما يقول حسان، شرقية وغربية، سرية وعلنية، حكومية وأهلية، دينية وإلحادية، عسكرية ومدنية، تجمع صفوفها، وتحشد قواها، لغزونا من الداخل، بعد انحسار مرحلة الغزو من الخارج، ومع أن الغزو من الخارج ليس مستحيلا - وأفغانستان خير دليل على ذلك وشاهد (*) - إلا أن الغزو الثقافي أكثر استقرارًا، وأرسخ دعائم، وأعتى نفوذًا، بدون إبرار جوي، أو إحراج دولي[2].

**رابعًا :**

إن البعض - للأسف الشديد - يربط بين الحضارة والتقدم والمدنية، وبين البعد عن الدين، وعن الجذور الأصيلة، وعن تقاليد الماضي العريق، فالتدين عندهم رجعية، والتمسك بالتقاليد والجذور الأصيلة تخلف.

---

(١) عبد الله عبد المحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ص ٦ - ٧.

(*) حينما كتب د. حسان محمد حسان هذا الكتاب عام ١٤٠١هـ كان الغزو الشيوعي لأفغانستان على أشده، أما اليوم، وبعد نحو اثنتي عشرة سنة، فالأساليب هي هي لم تتغير، بل إنها زادت اتضاحًا، وما عاد هناك إحراج أو حياء، بل صراع صريح واضح وضوح الشمس، ويكفي أن ننظر لما يجرى على أرض البوسنة والهرسك من مذابح مروعة للمسلمين على أرضهم، زاد ضحاياها حتى كتابة هذه السطور عن ثلاثمائة ألف، وأوروبا وأمريكا وروسيا تتفرج، بل وتمد الصرب والكروات بالسلاح والتدريب بينما تحجبهما عمدا عن المسلمين، وقضية الشيشان نعيشها جميعًا وندري مأساويتها.

(٢) حسان محمد حسان، وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٧.

أمـا الجري وراء التافـه من قشـور الحضـارة الغـربية، والاقتبـاس والانغماس في تفاهات المجتمعـات هناك فحداثة وتجديـد وتقدم!! إن بعضهم يتصور أن مجرد إقامـة الحفلات الراقصـة الماجنة والصاخبـة يجعل منهم متحضرين ومتقدمين، والبعض يدعو لإقامة حفلات اختيـار ملكات الجمال وتتويجهن لإزالة الحياء من بنات المسلمين، وهم لا يعلمون، ولعلهم يعلمـون، أنهم بذلك إنما يدعون إلى تخريب مجتمعاتهم وهـدمها من الجذور. وكثيرون منهم يتصـورون أن مجرد التشبه بهذه القشور السطحية إنما يقربهم من مدنية أوروبا وأمريكا!!.

ولقد فات هـؤلاء - تمامًا - أن المسلمين لم يكونوا متقـدمين، ولم يكن لهم ذكر في العـالم، ولا إسهـام رائع في صنع حضـارة تليـدة مشرقـة إلا يـوم أن كـانـوا متمسكين بدينهم، عاملين بأوامره ونواهيـه، وأن العالم من حولهم والذي أذهله تقدمهم، قـد وقف حيرانًا أمـام هذا الانقلاب المفـاجئ الذي أصـاب «العربي الجاهل» فحوله إلى عالم متفقه يسهر الليل، ويصله بالنهار. طلبًا للعلم الذي حثه عليه الإسـلام، وجعله فريضة لا هوادة فيها، ولا تنـازل عنها، وأمام ذلك المجاهد العظيم الذي باع دنياه واشترى بها آخرة وعده الله بها ـ سبحانه وتعالى ـ هنا وقفت تلك الشعوب موقف المتعلم من ذلك الإنسان المسلم .. المبدع.. المنتج.. العـالم.. العامل.. والمجـاهـد، وتلك هي بعض صفحات الـذين يبنـون الحضارات، ويقيمـون صرح المدنيـات، ويـدفعون بشعـوبهم في طـريق التقدم.

ولو أن اليابان، في عصرها الحديث، أخذت في اقتناء قشور الحضارة والمدنية من أوروبـا - كما تفعل بعـض مجتمعـاتنـا الآن - لما تعـدت مـرحلـة العصـور الوسطى، عصـور الإقطاع التي كـانت تعيشها منـذ نحو مائتـي عام. إنما هي كرَّست حياتها، وبخاصة حياة أبنائها المبتعثين إلى الخارج، للبحث عن سر قوة

أوروبا، وعن بواعث تقدمها، منذ مطلع القرن الماضي، فكان الجهد المكثف والجري المحموم وراء العلم والتكنولوجيا، ومحاولات اقتفاء آثارها في كل مكان يظن أن فيه أثرًا لها على سطح الأرض، تطبيقًا لكلمات إمبراطورهم الواعي الداهية «ميجي» عام ١٨٦٨م، حين نادى بذلك في خطابه يوم جلس على العرش.

ويذكر التاريخ أن أبناء اليابان كانوا يركعون تحت أقدام عمال إنجلترا وألمانيا يخدمونهم، بصبر عجيب، وتفان أعجب، في سبيل أن يتعلموا منهم «سر الصنعة» وأن يتشربوا هذا السر حتى يعودوا به إلى مجتمعهم الياباني المتعطش للعلم، والباحث عن التقدم، بل إنهم في اليابان، حين علموا بوجود دولة عربية إسلامية متقدمة - آنذاك - أرسلوا بعثة سريعة من أبنائهم إلى تلك الدولة.. مصر.. كي يقفوا على سر تقدمها، ولقد كان ذلك عام ١٨٦٣م!!

ويكفينا في هذا المجال أن نذكر، ونحن نقارن حال مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، مع حال اليابان، في مجال العلم والتكنولوجيا، أقول يكفينا أن نذكر عبارة مفكرنا الإسلامي الشهير «مالك بن نبي» - رحمه الله رحمة واسعة - فلقد قال الرجل الحصيف: «لقد وقفت اليابان من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا نحن منها موقف الزبون»، وشتان بين «التلميذ».. طالب العلم، والباحث عن التعلم والاستفادة، وبين «الزبون» طالب المتعة والاستهلاك.. والساعي بقدميه إلى الكسل والخمول والذل.

إن الأول يبحث عن علم، وعن تطبيق علم، وهما الأساس المتين في صناعة الحضارة، وفي تمهيد الطريق للتقدم، ومن بعدهما يأتي الغنى والازدهار والقوة والمنعة والهيبة بين الدول، أما الثاني فهو يبحث عن البريق الزائف، واللمعان في القشور، يبنما يغيب عنه الأصل، ويعمّى عليه الجوهر، وما عرف التاريخ أمة

اكتسبت قوة أو مناعة أو حتى احترامًا بين الشعوب بكثرة استيرادها، وبضخامة إسرافها، بل العكس هو الصحيح؛ إذ أن ذلك كله مؤدٍّ للخضوع، آخذ برقاب تلك الشعوب إلى مهاوي التبعية والذل، وليس هناك من نتائج أخطر من هذه فيما يتعلق بالغزو الثقافي.

**خامسًا:**

ويبين «التركي» الأثر الخطير للإعلام في حياة الأمة، في مجال الغزو الثقافي، وكيف أنه يحاصرها، ويأخذ بتلابيبها، ولا يترك لها مجالاً إلا السقوط في أحابيله، إلا من عصم الله، يقول: «إن المجتمعات الإسلامية بوغتت وهي متلبسة بأغلال الغزو الثقافي وآثاره، بما زاد المشكلة سعة وعمقًا وتعقيدًا وحدة.. فقد بوغتت المجتمعات الإسلامية بتدفق إعلامي ضخم الحجم، بالغ التأثير، متواصل الطَرْق والدق والإلحاح، فخوطب الطفل المسلم بما يتعارض مع فطرته، ومقومات تكوينه الإسلامية، وخوطبت المرأة المسلمة بما يجعلها نسخة مشوهة من المرأة الغربية، وخوطبت الأسرة المسلمة بما يقوِّض أواصر التواد والتراحم، ويهدم الصلة السوية بين الأجداد والأبناء والأحفاد، وخوطب المجتمع الإسلامي كله بما يضرب وحدته الفكرية، وبما يورثه فتنة في الدين، وشكًّا في المقومات، وبما يزلزل أمنه الثقافي وطمأنينته النفسية [1].

**ولا يحتاج الكلام السابق إلى كثير تفسير، ولا إلى عميق توضيح، فالأوضاع من حولنا تفسره وتدل عليه، في بيوتنا، وشوارعنا، ومدننا، ومحلاتنا، وعلى حدودنا، في علاقاتنا ببعضنا، في تنافرنا ومعاركنا، معاركنا الشخصية في العمل، ومعارك دولنا في خلافات تافهة مصطنعة على الحدود، في شكنا في**

---

(١) عبد الله عبد المحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ٦.

**بعضنا وثقتنا في الأجنبي، في سوء فهمنا وشكنا في أهلنا بينما ثقتنا في الأجنبي بلا حدود، في انغلاقنا على بعضنا وادعاء السرية في بعض التافه من الأمور، بينما بلادنا وأحوالنا وأوضاعنا كتاب مفتوح مكشوف ومفضوح أمام الأجنبي. وليس هناك من أوضاع متردية أكثر من هذه بالنسبة لآثار الغزو الثقافي، في تقديرنا للغير، وفي عدم احترامنا لأنفسنا وذواتنا بما يجعلنا أمة خيرها لغيرها، ومستقبلها لا تمتلكه ولا تخطط له، ما دامت تابعة لمن لا يدينون بدينها، مع أننا طولبنا من ربنا بغير ذلك ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾.**

**سادسًا :**

من أخطر ما توصل إليه من فكروا في الغزو الثقافي أنهم ركزوا على الإنسان.. من داخله، بحيث تزلزل شخصيته، ولا يعرف صاحبها رأسه من قدميه، كما يقول المثل. لقد جرب الاستعمار حرب السلاح، والاستيلاء على الأرض، فوجد المسلمين ينتفضون يدافعون بقوة وحماس عن الأرض والعرض والشرف، في مصر فعلوا، وكذا في الجزائر وأفغانستان، وهم لا يزالون يفعلون في فلسطين وفي البوسنة والهرسك والشيشان، والنتيجة المحتملة والنهائية هي هزيمة الاستعمار، والخروج من الأرض، مهما بلغت التضحيات.

ومن هنا تمخضت حيلهم وأفكارهم عن الشكل الجديد من الاستعمار، ألا وهو تذويب شخصية أو شخصيات هؤلاء المجاهدين والمقاومين الرافضين لوجودهم على أرضهم، وحينما تذوب الشخصية تضيع الأهداف، أهداف الأمة الإسلامية، بينما تتحقق أهداف المستعمرين أعداء الإسلام. إن احتلال الشخصية أهم من احتلال منابع النفط «... والسيطرة على العقول.. أهم من السيطرة على الأسواق»[1].

---

(١) حسان محمد حسان، مرجع سابق، ص ١٦.

ولننظر حولنا لنرى ماذا فعل بنا الوضع الجديد، أي بعد طرد الاستعمار العسكري المسلح، وبعد تذويب الشخصية الإسلامية، وتمكُّن الغزو الثقافي من عقولنا ونفوسنا وجماع شخصيتنا.

أيام الاستعمار المسلح كان الأجنبي بغيضًا إلى نفوسنا، محتقرًا في بيوتنا، لا يستطيع أن يسير في مدننا وشوارعنا، ومن هنا كان يحتمي في مناطق خاصة تعزله عن مجتمعاتنا (في منطقة قناة السويس.. في حالة مصر)، وفي معسكرات يحيطها بأسلاك شائكة، ويضع على حدودها حراسات، وأضواء كاشفة، وأسلاكا مكهربة عازلة. ورغم كل هذا وصل إليه الفدائيون الإسلاميون، ونالوا منه، وأسالوا دمه، وأقضُّوا مضجعه. أما اليوم - وبعد الاستقلال - فقد خرج الجندي المدجج بالسلاح، وعاد إلينا بشكل آخر، عاد سائحا.. وعاد خبيرا.. وعاد أستاذا.. ندعوه نحن، ونلح في الدعاء، ونستضيفه ونكرمه، ونبالغ في الحفاوة والتكريم، نحجز له في أفخم الفنادق، ونرتب له برامج للزيارة، ونحجز له ما هو أخطر.. نحجز له مكانًا آمنًا في عقولنا ونفوسنا، ونطلب من أبنائنا أن يتعلموا من (حكمته)، **وإذا رجوناه أن يبقى عندنا للعمل منحناه أضعاف ما نعطي النجباء من أبنائنا، وتمكنت منا عقدة الخواجة، وأصبحت دالة على إحساسنا بالنقص، وعلى استشعارنا الدونية والمهانة... على أرضنا!!**

أيام الاستعمار المسلح كانت فينا عزة، وكانت لدينا كرامة، وكان الوطن يعنينا، فخرجت من بيننا فئات مؤمنة واعية تنادي بمقاطعة الأجانب، ومقاطعة بضائعهم حتى تبور في الشوارع والمحلات، وحتى يعلموا أننا لا نقبل أن نشتري، ومن ثم نربِّح، ممن يقتلون أبناءنا، ويدنسون تراب أوطاننا. وفي الوقت نفسه ارتفعت صيحات واعية بتشجيع الإنتاج الوطني، والوقوف خلف الصناعة الوطنية.

واليوم . . . وبعد الاستقلال، وبعد الغزو الثقافي، أين نحن من هذا . . ؟؟ شركاتنا الوطنية (والمثال من مصر كذلك)، وبخاصة شركات القطاع العام، خسائرها السنوية بمئات الملايين من الدولارات، بينما الشركات الأجنبية تصول وتجول في أسواقنا، وأذواق المصممين عندهم تسيطر على عقول نسائنا وفتياتنا . . بل وشبابنا والرجال، وهي تحصد الأموال من أيدينا لتذهب بها إلى مواطنيهم هناك في الخارج، ويكفي أن نذكر أن مصر حينما قامت فيها الثورة منذ نيف وأربعين عامًا كانت تدين إنجلترا بنحو خمسين مليون جنيه استرليني، نتيجة عمل الفلاحين والعمال المصريين، ونتيجة جودتهم وإتقانهم !!! أما اليوم فديوننا . . ومعنا الغالبية العظمى من دول العالم الإسلامي علامة دالة على كسلنا وإهمالنا، وتمكن الغزو الثقافي منا بحيث أصبحنا نجلس أمام الفيديو والتليفزيون بأكثر مما نمكث في الحقل أو في المصنع . . !! (*).

**سابعًا :**

على الرغم من أن جامعاتنا في العالم العربي بها النخبة المثقفة ذات المستوى العالي إلا أن الغزو الثقافي قد وصل فيها إلى النخاع متمثلا في إهمال اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وخصوصًا في الكليات العلمية، وبالتحديد : الطب والصيدلة والهندسة، وأحيانا العلوم، حيث يجرى التدريس فيها باللغة الإنجليزية، **وكأنما ضاقت لغة القرآن الكريم عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة، وهي التي كانت لغة العلم . . . العالمية، فحتى القرن السابع عشر الميلادي كانت جامعات أوروبا القديمة ما زالت تستخدم كتب العلماء**

---

(*) يمكن لمن أراد زيادة حول هذا الموضوع أن يرجع لرسالة الماجستير الخاصة بالكاتب، وهي بعنوان : دور التربية في مواجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربة الريف، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥م.

**المسلمين، وتعتمد عليها في شتى فروع المعرفة المختلفة**. بل ويكفينا هنا أن نذكر أن محمد علي باشا، والي مصر في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، حين أنشأ كلية الطب في مصر، وترأسها عالم فرنسي، هو «كلوت بك»، كان التدريس فيها آنذاك باللغة العربية، وكان ذلك عام ١٨٢٧م، أي منذ أكثر من ١٦٥ (مائة وخمسة وستين) عامًا !!

لقد كان محمد علي باشا، عليه رحمة الله، واعيا جدًّا لأهمية اللغة العربية في المعاهد التي أنشأها، بل وذهب في بعد نظره لهذا الأمر مذهبا لا أبالغ إذا قلت إننا قصرنا عنه هذه الأيام في الجامعات، لقد كان يطلب من كل طالب مبتعث حين عودته للوطن أن يترجم أطروحته التي حصل عليها بالخارج إلى العربية، حتي يعم نفعها أبناء وطنه، ولا تظل حبيسة الأدراج لا يستفاد منها، وما من أمة تركت لغتها وهجرتها إلى غيرها إلا ضاعت وأصبحت تابعة لغيرها.

ويكفي هنا أن نشير إلى أن اليابان رفضت بإصرار غريب أي تعديل في لغتها من جانب الأمريكيين، حتى بعد ضربها بالقنابل الذرية في هيروشيما ونجازاكي، ولقد خضعت للأمريكيين في كل شيء عند توقيع معاهدة السلام، وقبلت بكل شروط الاستسلام التي فرضت عليها كأمة منهزمة، ولكنها حين وصل الأمر إلى ميدان تعديل اللغة اليابانية . . . رفضت وأصرت على الرفض، لأنها كانت تعلم أن اللغة هي ضمير الأمة، وهي عقلها، بل هي كيانها وذاتها.

ويقيني أنه لو كانت اليابان قد وافقت على تعديل لغتها، إرضاء للأمريكيين، لكانت شخصيتها قد محيت من الوجود، ولما كانت قد تقدمت هذا التقدم الهائل، بل التقدم المعجز في مجالات العلم والتكنولوجيا الرائعة والمذهلة التي اعترف ويعترف به الجميع في شرق وفي غرب. ويكفي أنها تفوقت على الذين انتصروا عليها في الحرب، وأصبحت وهي تغزوهم بمنتجاتها في

ديارهم، وتضربهم بقنابل اقتصادية لا يستطيعون لها اتقاء، بل أن تدينهم بعشرات المليارات من الدولارات. ومن بضع سنوات والميزان التجاري يميل لصالح اليابان ضد الولايات المتحدة الأمريكية، ويعترفون ويقرون في اليابان بأن الفضل يعود للتربية اليابانية، والتي عمادها لغة مجتمعها بطبيعة الحال. إن هذه التربية اليابانية خرَّجت للأمة اليابانية علماء ومخترعين ومهندسين قفزوا بمجتمعهم خطوات رائعة على طريق التقدم، مما جعله يسبق مجتمعات الدنيا، بل وجعل المسافة بينهم وبين غيرهم من المجتمعات تتسع أكثر وأكثر، والذي يملك السبق ـ في مجال التكنولوجيا ـ يصعب اللحاق به، كما يقول مؤلف كتاب «اليابان التي تستطيع أن تتمرد» (١)، والذي أثار ضجة هائلة في الولايات المتحدة الأمريكية منذ بضع سنين، وحتى الآن (١٩٩٥م).

**ثامنًا:**

إذا كان المستعمرون يخططون لأنفسهم ولنا في قضية الغزو الثقافي هذه، بدعوى أنهم أصحاب الثقافة الأقوى والأرسخ، وهم معتمدون في ذلك على تفوقهم العلمي والتقني، إلا أن المسلمين أصحاب عقيدة هي الأعظم عبر التاريخ، وهي التي ينبغي أن تسود بين الأمم والشعوب، وهذه العقيدة ينبغي أن تستتبعها ثقافة على المستوى نفسه من العظمة والرسوخ. وإذا كان المسلمون قد فرطوا في العلوم فترة معينة في حياتهم، وهم يدفعون ثمن ذلك الآن، نقول إذا كان ذلك قد حدث فإنه لا ينبغي عليهم أن يخضعوا أو يذلوا، ولكن - للأسف الشديد - فإن طائفة كبيرة منهم فقدت حسها الإسلامي السليم فهانت على نفسها، ومن ثم على الناس، وكان ذلك نتيجة الانبهار الشديد بثقافة الغازي

---

(١) Shintaro Ishihara : The Japan that Can say No, Op. Cit.

وفكره، يقول التركي : «ونأسف إذ نقول : إن الحضارة الغربية أطريت بإسراف في العالم الإسلامي، والإطراء أسلوب يفقد الإنسان توازنه العقدي أمام من أو ما جرى إطراؤه. لهذا السبب - ولأسباب أخرى - نهى الرسول ﷺ أن يطريه المسلمون، وذلك لأن أقوامًا أطروا رسولهم، ففقدوا - من ثم - توازنهم العقدي، وجعلوا رسولهم إلهًا أو بعض إله، ولكن مادحي الحضارة الغربية - في العالم الإسلامي - جعلوا لها ما ليس لرسول الله ﷺ».

إن الانبهار بغير المسلمين حالة نفسية وفكرية لا تدل بحال من الأحوال على قوة العقيدة ونقاء التوحيد. ثم إن للانبهار الشديد مقتضيات في مقدمتها التقليد والمحاكاة، وقد نهي المسلمون عن تقليد غير المسلمين. ولكن حين نسيت هذه المعاني، استمر المطرون في إطرائهم للحضارة الغربية فحصل الانبهار الشديد بها، وكان هذا الانبهار أحد مداخل الغزو الثقافي[1].

**تاسعًا :**

من مآسي الغزو الثقافي، ومن مسبباته أيضا أن المجتمعات المغزوة يحس أفرادها بالدونية أمام أبناء المجتمعات الغازية «أي أن يحس المرء بأنه ينتمي إلى حضارة أدنى قيمة وأقل وزنًا من حضارة الغازي. ومما لا شك فيه أن هذا الإحساس نشأ ونما في غياب الانتماء الحقيقي والمستنير لحضارة الإسلام. ومما لا شك فيه أيضا أن المسؤول عن هذا الغياب هو مناهج التربية والتعليم، وبرامج التوجيه والتثقيف»[2].

---

(١) عبد الله بن عبد المحسن التركي، مرجع سابق، ص ص ١٥ ـ ١٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٥ - ١٦ .

ولو ترجمنا هذا الكلام السابق ترجمة عملية وقمنا نستعرض مناهج التعليم في بلادنا العربية والإسلامية لوجدنا عجبا حقًّا، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموضوع في ثنايا هذا الكتاب، ولكن للتذكرة فقط نضع بعض الحقائق عن أوضاع المناهج في بعض بلادنا «إن خريجي كليات الحقوق في بعض جامعاتنا لا يفهمون كتابا عربيا واحدا في المواد التشريعية؛ لأن خطة الدراسة فيها تخصص عشرين ساعة في الأسبوع للقوانين الأوروبية (الفرنسية في الغالب في حالة مصر)، بينما تخصص ساعتين اثنتين فقط للشريعة الإسلامية !!! ترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا أو إنجلترا أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟؟ !!

إن إحدى كليات الآداب في عالمنا العربي (في جامعة بغداد بالعراق.. تحديدًا) تقول خطط الدراسة بها في قسم اللغة العربية إن هناك مقررًا بعنوان: البلاغة.. والقرآن.. والحديث»، وأن مدته أربع ساعات، وهو يدرس في السنة الأولى الجامعية فقط، أي بواقع ساعة وثلث الساعة لكل علم من هذه العلوم التي بها فروع لا تكفيها على وجه اليقين أضعاف هذه الساعات الأربع !![1].

المهم أنها أربع ساعات، ويدرسها الطالب في السنة الأولى.. ثم ينساها بعد ذلك - على وجه اليقين - عند التخرج، أو حتى قبل ذلك التخرج؛ لأنه لا يجد لها متابعة في السنوات الثلاث التي تلي ذلك، هذا بينما يدرس للطالب نفسه في القسم نفسه «اللغة الإنجليزية» بواقع ثلاث ساعات في السنتين الأولى والثانية، فيصير المجموع ست ساعات للغة المستعمرين البريطانيين الذين يحلو لبعضنا

---

(١) محمد عبد العليم مرسي: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

أن يسبهم ويلعنهم، وذلك مقابل ساعة وثلث للغة القرآن الكريم، وذلك لمن؟ لطالب اللغة العربية الذي سيتخرج ليعمل مدرسًا !!

وفي قسم الصحافة، بالكلية نفسها (آداب جامعة بغداد) والذي سيتولى خريجوه توجيه الرأي العام في مجتمعهم ـ أو هكذا يفترض ـ لم نجد مقررًا واحدًا ذا هوية إسلامية، مجرد مقرر واحد على مدار السنوات الأربع للدراسة في قسم الصحافة[1]، فهل جاء ذلك مصادفة ؟؟ أم أن التغريب قد تمكن من واضعي تلك المقررات، وأن الغزو الثقافي قد تمكن منهم لدرجة أذهلتهم عن هويتهم الإسلامية التي يدّعون الانتماء إليها ؟! هل لو كانت جامعة بغداد دعت لجنة خبراء من الأجانب لوضع الخطة الدراسية لذلك القسم، هل كانوا سيفعلون غير ذلك ؟؟ أعتقد أنهم كانوا سيضعون مقررًا في الإسلام، من أي نوع، ولو من جانب العلم بالشيء، ومحاولة منهم لفهم - مجرد فهم - ثقافة المجتمع الذي يعلمون طلابه !!

**عاشرًا :**

ولا يقتصر الأمر على مجرد خلو خططنا الدراسية، في بعض جامعاتنا من مقررات الهوية الإسلامية فحسب، وإنما وصل إلى حد السماح بإقامة «مدارس أجنبية» على ترابنا الإسلامي. إن هذه المدارس معاول هدم حقيقية، وهي تعمل في عقول أبنائنا الذين يدخلونها، سواء وعينا ذلك أو غاب عنا.

إنها تعمل على تغريب أجيال كاملة من أبناء الأمة الإسلامية، والمجتمع الذي يسمح بوجود هذه المدارس على أرضه يعطي القائمين عليها سلاحًا من أخطر ما يمكن، ومن أفظع ما نتصور، إنهم يتمكنون من خلال مناهجها

---

(١) المرجع السابق.

وبرامجها، من تشكيل عقول الناشئة وتوجيههم الوجهة التي يريدون، حتى وإن كانت ضد مصالح مجتمعهم، وضد عقيدته وأمنه.

ومهما تكن الدعاوى حول السماح لهذه المدارس بأن تعمل على أرض بعض بلادنا الإسلامية فهي بلا شك تنبئ عن ضعف فادح، بل وفاضح من جانبنا، وعن قوة وتجبر وتسلط من جانب أعدائنا. قوة وسيطرة في التأثير بحيث نوافق على إعطاء هؤلاء الأجانب حق تقرير مصير أطفالنا. وقد يقال إنها أنشئت أصلا لتعليم أبناء الجاليات الأجنبية، ولكن الواقع يقول إن خطرها قد امتد إلى أبناء المجتمع الأصلي الذي سمح بوجودها على أرضه، وأنها بدأت تنشر سمومها وتنفثها بين أبناء المجتمع كله.

إن أحد المجتمعات العربية الإسلامية القليلة العدد جدًّا به أكثر من خمس وعشرين مدرسة أجنبية، وقد ارتفعت صيحات المصلحين في ذلك المجتمع في عدد غير قليل من صحفه ومجلاته، منبهة إلى خطورة أوضاع تلك المدارس على مستقبل الأبناء ومستقبل الوطن، إن نسبة أبناء العرب المسلمين في هذه المدارس الأجنبية بالكويت أعلى من نسبة غيرهم من الأجانب، والتي أنشئت ـ أصلا ـ من أجلهم، أو هكذا قيل، تبريرًا للسماح بافتتاحها، وقد كتب أحد أبناء ذلك البلد يحذر قومه من المصير المنتظر، فما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد ما، أو إقليم في الشرق، إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس الأجنبية بمرسليها الدينيين، ومن تخلق بأخلاقهم كي يمهدوا السبيل للاستعمار. . . الاستعمار الثقافي والفكري بطبيعة الحال[1].

ولمن يهوّن من أمر المدارس الأجنبية، أو لمن لا يعي خطرها، نسوق إليه ـ وبالأرقام ـ رأي واحد من دعاة الاستعمار في الغرب، يقول الجنرال «بيتر كيللر»: «في بداية حرب ١٩١٤م (الحرب العالمية الأولى) كان أكثر من ٥٢,٠٠٠ (اثنين

(١) المرجع السابق، ص ٧٧.

وخمسين ألف تلميذ) يتلقون تعليمهم في مدارسنا، وكان بين هؤلاء فتيان وفتيان ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس (لعلنا نتنبه . . ! !) تعلن عام ١٩١٧م أن ميول جميع السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا . . . بعد أن تعلموا لغتها وخبروها على مر الأجيال»[١]. ألم نقل - في بداية هذا البحث - إن احتلال مساحات في العقول والأفهام أخطر من احتلال مساحات من الأرض يهب أصحابها للدفاع عنها ضد المستعمرين . . ؟! إن احتلال العقول والأفهام يحول طائفة من أبناء الأمة من الدفاع عن وطنهم ومواطنيهم إلى الدفاع عن المستعمر ومصالحه . . وليس بعد ذلك من كارثة، والفضل في ذلك ـ إن صلح التعبير في هذا الموضع ـ للغزو الثقافي والفكري الذي حول هذه الطائفة من أبناء الأمة من صفوف إخوانهم وأشقائهم إلى صفوف أعدائهم.

ولعل التوقف عند حالة مصر، فيما يخص هذا الموضوع، يعطينا صورة واضحة تغني عن البحث في حالة كل بلد عربي على حدة، خصوصًا وأن مصر كانت - دوما - مفتاح الدول العربية، كما كانت تجربتها في التعليم هي التجربة الرائدة في العالم العربي، وقد نقلت بكاملها - أو كادت - إلى دول الخليج.

إن محمد علي باشا، الذي تولى حكم مصر بمساعدة مشايخ الأزهر وعلمائه، عاد فانقلب عليهم وضايقهم، بل وضايق الأزهر نفسه وضيّق عليه، ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن ينحو خلفاؤه منحاه من بعده، وأن يوسعوا على المدارس الأجنبية، وأن يمنحوها كل ما تريد وأكثر. أرضا . . ومالاً . . وصلاحيات . . واستثناءات، ولنقرأ كيف كان يدار بلد من بلاد المسلمين لحساب النصارى من

---

(١) عبد الستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام (ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤هـ، ص ١٩٩.

كل بلد أوروبي أراد أن يكون له موطأ قدم في أرض الكتانة، فحصلوا على امتيازات لا يمكن للعقل أن يصدقها، إلا أن يكون الذين منحوها قد فقدوا عقولهم !! وكأن هذا البلد - مصر - كانت بلا أصحاب، وبلا أهل، ولا عجب، فلم يكن حكامه من أبنائه فعلا، ولا كان يعنيهم أمره حيث أعطى «سعيد باشا» راهبات الراعي الصالح آلاف الفرنكات، وآلاف الجنيهات للمدرسة الإيطالية، كما وهب للمدرسة الأخيرة ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف) ذراع من الأرض في أحسن جهات الإسكندرية»[١].

وكذلك «منح إسماعيل باشا راهبات الإحسان ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) ذراع لبناء مدرسة عليها في الإسكندرية، ومقادير هائلة من القمح سنويًّا، وأيضا للراهبات اليسوعيات، ومدرسة الأوروبيين في بورسعيد، والمدرسة اليونانية والعازاريين والفرير بالإسكندرية، كذلك منح الإرسالية الأمريكية أرضا بالقرب من فندق شبرد - بالقاهرة - ليقيموا عليها مركزا، بالإضافة إلى هبة مالية (تصوروا . . . نحن في مصر . . في عهد إسماعيل المدين لشوشته، أو الذي تسبب في استدانة مصر. . نمنح الأمريكيين . . هبة مالية . . !!!) مقدارها ٧٠٠٠ (سبعة آلاف) جنيها ذهبيا . . للبناء، كما كان يطلب إلى الهيئات الإدارية والمحلية مد يد المساعدة للقائمين على أمر هذه المدارس الأجنبية» !![٢].

ولعلنا لا ننسى هنا مقولة د. عبد الله التركي من أن الأمر المذهل في أمر الغزو الثقافي هو أن المغزو. . . أي المعتدى عليه. . . هو الذي يستدعي الغازي إلى

---

(١) سعد مرسي أحمد، سعيد إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

دياره، وأكثر من ذلك أنه هو الذي يدفع له ثمن مجيئه، وثمن بقائه على أرضه، ومن ثم ثمن تخريبه لعقول وشخصيات أبنائنا وناشئتنا، أليس هذا من نكد الدهر أن يكون بيننا حكام من هذا النوع ؟؟

ثم لعلنا نتابع الإيقاع السريع لإنشاء المدارس الأجنبية في مصر، لنرى ذلك الحِمى الذي استباحه الأجانب ببشاعة وإجرام، في بلد الأزهر والذي ترتفع فيه المآذن بالمئات، أو حتى بالآلاف، ولكن وحتى نكون منصفين . . هل كان ذلك خطأ الأجانب؟؟

- في عام ١٨٧٦م تأسست إرسالية راهبات الرسول Notre Dam Das Spotres، كما أسست مدرسة لها في طنطا عام ١٨٨١م.

في عام ١٨٨٠م أسست مدرسة بواسطة إرسالية راهبات المير دي ديو La Mere de Dieu، وذلك في حي بولاق بالقاهرة، كما قامت الإرسالية نفسها بتأسيس مدرسة في الإسكندرية عام ١٨٨٢م.

- أنشئت مدارس الفرير Saint Joseph بالقاهرة عام ١٨٥٤م، ومدرسة أخرى بها، أطلق عليها الملحقة، كما أنشئت مدرستان أخريان في الإسكندرية في عامي ١٨٧٣م - ١٨٨٨م.

- بدأت إرسالية الجزويت بإنشاء مدرسة للبنات بحي المنشية بالإسكندرية عام ١٨٥٦م، ثم أتبعت ذلك بمدرسة للبنين عام ١٨٥٧م، وفي عام ١٨٦٨م توجت الإرسالية عملها بإنشاء الكنيسة الأسكتلندية في ميدان إسماعيل.

- في عام ١٨٥٥م افتتحت الجالية اليونانية مدرسة للبنات بالإسكندرية، وفي عام ١٨٦٠م افتتحت مدرسة أخرى تضم قسمين للبنين والبنات.

- في عام ١٨٥٤م أنشأت الجالية الأرمينية مدرسة بجوار كنيسة السيدة العذراء بالقاهرة.

- وفي الفترة نفسها أنشئت مدرسة تابعة للجالية الألمانية.

- وفي الفترة نفسها أنشئت مدرسة تابعة للجالية الإيطالية[١].

إن كل ذلك النشاط النصراني المحموم جرى لتغريب المجتمع المصري الذي سبق أن هزم الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع، ملك فرنسا، وقد أذله ومعه جنوده وضباطه، فكأنهم جاءوا ينتقمون، خصوصًا وقد وجدوا من يمنحهم امتيازات ما كانوا ليحصلوا عليها في أي مكان آخر، بهذا الكرم (السفيه)، خصوصًا حين نعلم أنه كان من بين هذه الامتيازات - بخلاف الأراضي والأموال والمعونات والهبات - أن يعفى الطلاب المصريون الذين يذهبون إلى مدارس الإرساليات (النصرانية طبعا) من الجندية !!! أو من الاشتغال بإقامة السكك الحديدية والطرق العامة. كما كانت هذه المدارس مستقلة تماما عن ديوان المدارس أو نظارة المعارف، كما كان يطلق عليها[٢].

وقبل أن نترك هذا الجانب الخطير، جانب المدارس الأجنبية، من جوانب الغزو الثقافي، لعلنا نورد بعض الملاحظات التي نعتقد أهميتها :

١ - في غمرة الحماس الغبي من جانب حكام مصر آنذاك لمنح الدول الأوروبية كل ما قرأناه، كانت إنجلترا تعد العدة لغزو مصر عسكريا واحتلالها وإذلال أهلها، فلم يغن عنها كل ما فعل حكامها، ولا كل ما قدموه للغرب النصراني . . !!!

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠١.

٢ - كانت هـذه المدارس تدار بعيـدًا عن أية رقـابة من نظـارة المعارف (وزارة المعـارف)، ومعنى ذلك أنهم في هـذه المدارس كـانـوا يضعـون من المنـاهج مـا يشاءون، ويدربون الطلاب والطالبات على كل ما يهدفون، ومعروف أن الهدف النهائي لهم كان إخراج فئة معينة من أبناء مصر عـن دينها، وتربية أفرادها بعيدا عن قيم ذلك الدين.

٣ - الامتيازات التي كانت تمنحهـا هذه المدارس للملتحقين بها من الطلاب كـانت تمثل عزلا لفئـة من أبنـاء المجتمع عن بقيـة زملائهم، بحيث يتربـون في أحضان النصارى، ومن ثم يكونون طابورًا خامسًا لهم فيما بعد.

٤ - توجـت دائما جهود الأوروبيين في مصر بإنشـاء كنائس في أعقـاب إنشاء المدارس.

٥ - النتيجة الحتميـة لتربية فئة من أبنـاء الوطن الـواحد في ظل تعليم أجنبي مختلف عن تعليم ذلـك الـوطن هـو انقسـام المجتمع إلى فئتين متصـارعتين، إحداهما تحب الوطن وتدافع عنه، وأخرى تشعر بالفضل تجاه الأجنبي، فهو ولي النعمـة والفضل، ومن ثم تعمل لصـالحه، ولصالح تـرسيخ وجـوده على أرض ذلك الوطن.

٦ - في هذه المدارس الأجنبية ظهرت بدعـة الاختلاط بين الفتيان والفتيات، في مراحل التعليم المختلفة، بـاعتبار أن ذلك صيحة حضاريـة جاءت إلينا من بلاد الغرب المتقدم !! ولقد بدأ هـذا الأمر مع أطفالنا الصغار في المدارس بحيث يشبون عليـه وكأنه هـو الوضع الطبيعي، وغيره شاذ، هـو الأمر التقـدمي، وما عداه متخلف.

وبهذا السلـوك المنحرف في مـدارسنا نـزعنا جـانب الرجـولة الـذي اشتهر بـه المسلمـون الأوائل في تربيتهـم لأولادهم، وأحللنا بـدلا منـه ألوانًـا من السلـوك

المنحل والهابط، بل والمتخنث أحيانًا، في أبنائنا الذين يفترض أنهم سيكونون رجال الغد. كما أننا ـ بهذا السلوك أيضا ـ نزعنا الحياء من سلوك فتياتنا، أمهات المستقبل اللاتي من المفترض أن يحملن الأمانة، وأن ينقلن السلوك السوي الذي أمر به الإسلام إلى أبنائهن وبناتهن.

وعن ظاهرة الاختلاط بين البنين والبنات هذه يقول واحد من الغيورين على هذه الأمة وعلى دينها: «لقد حرص التعليم العلماني على إدخال البنات المسلمات إلى مدارسه، وساعد على ذلك أن المسلمين لم ينتبهوا إلى فتح معاهد التعليم الديني للبنات المسلمات، بل لقد كان كثير من مدارس البنات في بعض البلاد الإسلامية، بل وفي دولة الخلافة الإسلامية، تابعة لمؤسسة دينية غير إسلامية، ويباشر فيها «المبشرون» تنصير المسلمات، وكانت الخطوة الأخطر هي إحداث الاختلاط بين الطلبة والطالبات داخل الجامعات العلمانية في أكثر البلاد الإسلامية، بل امتد إلى الاختلاط في مرحلة الدراسة الابتدائية، وأحيانًا في المرحلتين الإعدادية والثانوية في فورة المراهقة وثورتها» (١).

**عاشرًا:**

وهذه هي النقطة الأخيرة في هذه السلسة من الأفكار حول الغزو الثقافي، وهي تتعلق بمحصلته الخطيرة التي يخرج بها الإنسان المسلم عن المجتمع الذي تمكن منه ذلك المرض الخطير، ونقصد به الغزو الثقافي.

إن النتيجة المحزنة والمؤلمة في آن واحد هي «التسليم بالأستاذية للحضارة الغربية، والتسليم بالأستاذية موقف ـ كما يقول التركي ـ ينشئه الذهول عن الرسالة الإسلامية العالمية التي تورث صاحبها أو حاملها الإحساس القوي

---

(١) علي جريشة، مرجع سابق، ص ص ٣١٠ - ٣١١.

العميق بأنه أستاذ العالم في العقائد والمبادئ والشرائع والأخلاق، كما ينشئه الخلط بين صحة العقيدة والتفوق المادي، إذ يظن الظانون بأن المتفوق في الفيزياء متفوق - بالضرورة - في كل شيء، حتى في الاعتقاد !! وهذا ليس صحيحًا، فرجل عادي في واحة من واحات الجزائر، يحمل عقيدة التوحيد، يعد - في ميزان الله عز وجل - أكمل وأرشد ملايين الدرجات من جراح كبير لامع غير مسلم، يعيش في عاصمة دولة كبرى» (١).

(١) عبد الله بن عبد المحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ص ١٥ - ١٦.